لقاء

إسماعيل الدباغ القدس في زمن التغييب

ذاكرة باب العامود

يواصل المخرج والممثل الفلسطيني تقديم واقع المقدسيين وأزماتهم في الجزء الرابع من مسلسله، في ظلّ ظروف إنتاجية صعبة وتجاهل الفضائيات العربية لعمله، وهو ما يراه، في حديث إلى «العربي الجديد»، أمراً مقصوداً يهدف إلى تغييب القدس عن الضمير العربي

محمود منير

منذ عام 2013، يواصل المخرج والكاتب والممثّل الفلسطيني إسماعيل الدباغ تقديم مسلسله «باب العامود» في عدّة أجزاء، وهو عمل صبور يكشف التهويد المتواصل الذي يفرضه الاحتلال الصهيوني على مدينة القدس المحتلة من خلال التضييق على أهلها من أجل دفعهم إلى مغادرتها، في لحظة عجز تاريخية تحيق بالعالم العربي الذي تهرول بعض أنظمته للاعتراف بالعدو والتخلّي عن الحقوق الفلسطينية والعربية بعد سلبها لأكثر من سبعة عقود.

في نيسان/ إبريل المقبل، تبدأ التحضيرات للجزء الرابع من العمل الدرامي الذي تمّ تجاهل مواسمه الثلاثة الماضية من قبل الفضائيات العربية، بحسب تصريحات مخرجه إلى «العربي الجديد»، الذي يرى أن ذلك يأتي ضمن سياسات تتقصّد تغييب المدينة المقدسة عن شاشاتها، ما يشكّل إمعاناً في محاصرتها وعزلها عن امتدادها العربي الإسلامي.

يقول الدباغ إنه «في ظلّ مهرجانات التطبيع الترامبية، لم يتغيّر شيء سوى خروج بعض المهرّجين المطبّعين بين الحين والآخر لتقديم الطاعة والولاء لسيّدهم بشكل مخزٍ، وهم يتحدثون العبرية بطريقة تجعلك تضحك حدّ الهستيريا على تفاهتهم وضيق مداركهم، وهم كمن يتغنى بموسم ويغدق عليها بالهدايا الثمينة، وينسى أنها قبضت الثمن». ويتساءل: «كيف لفنان أن يقاوم هذا الفعل؟ هذه الأفعال لا تقاوم من خلال الفن؛ الفن له أصوله ومداركه الإنسانية، وهؤلاء لا يستحقون أن تقاومهم ثقافياً. نتركهم لحالهم ونشفق عليهم مما ينتظرهم من سوء المآل».

يتابع صاحب مسرحية «شارع فساد الدين» بأن «إنتاج عمل فني في فلسطين اليوم هو أشبه بالمهمة المستحيلة، فما بالك بإنتاج مسلسل درامي يُصوَّر في القدس؛ هذا المستحيل بعينه. نحن فنانون مغامرون ومقامرون في آن واحد، إذ ليست هناك أيّة جهة داعمة، ونحن ننتج من العدم ودون ضمانات الاستمرار. لا أصدّق أحياناً أننا أنجزنا ثلاثة أجزاء أفرحت وأسعدت الجمهور في فلسطين وخارجها، فجميعنا بات يعرف حسن بقاطو مصلّح الغسالات، والفرّان أبو جابر، وخليل كمونة، وحسنيّة زوجة حسن، المقدسية المحبّة لزوجها ومدينتها؛ هؤلاء هم المغيبون عن شاشات الإعلام العربي، وهم أصحاب البيت ولهم الحقّ في إيصال صوتهم وأحلامهم البسيطة».

ويوضح الدباغ لـ «العربي الجديد» أن «هؤلاء هم من يرفضون المساعدات الغذائية التي تأتي للمقدسيين، وهم ليسوا بحاجة إليها، كما قال حسن في أحد مشاهد المسلسل المؤلمة، حين طُرد من بيته فتكاتف أهل الحارة وقاموا بإغاثته وجمع ما تيسر لإيوائه في بيت جديد. رسالة حسن تقوم على التكاتف والتعاون وعدم قبول الفتات: بس يتركونا بحالنا!». يمثّل المسلسل فعل احتجاج على كلّ ما يهدّد المقدسيين من ضرائب جائرة يفرضها الكيان المحتلّ، وأزمات اقتصادية تقود إلى تشوّهات في القيم والسلوكيات الاجتماعية، حيث البطالة ترتفع معدّلاتها لدى شباب المدينة، ولا يجد طلبتها فرصة تعليم في المدارس الحكومية، فيما يواجه العديد من بيوتها العتيقة خطر الهدم دون وجود مشاريع لإعادة تأهيلها.

إسماعيل الدباغ

> إنتاج عمل فني في فلسطين اليوم أشبه بالمهمة المستحيلة

> تُصوّر جميع مشاهد العمل في شوارع القدس وبيوتها ومحلاتها

اختار الدباغ، ابن حيّ باب العامود الذي عاش فيه طوال حياته، أن يصوّر كلّ تلك المشاهدات في شوارع مدينة القدس وأزقتها وبيوتها ومحلّاتها التجارية، في محاولة لإخراج ما في داخل «الصندوق الأسود»، كما يسمّي المدينة العتيقة، من أسرار وخفايا يعتقد أنها تحتاج إلى إنتاج عشرات الأعمال الفنية من أجل تقديم صورة حقيقية عنها. وهو ما يسعى فريق العمل إلى كشف بعض منه: «هذا دورنا نحن أصحاب البيت. نقوم بواجبنا كفنانين تقطعت بهم السبل، ولكنّهم لا يقبلون المال الملوّث من القنصليات الأجنبية». يضيف الدبّاغ: «يستمد العمل جماهيريّته من لهجة أبطاله المقدسيّة الأصيلة وابتعاده عن اللغة الخشبية، إضافةً إلى خفّة ظلّ شخصياته، وتحديداً حسن وزوجته حسنيّة اللذين يحاولان الدفع بحالتهم الاجتماعية والاقتصادية إلى الأمام. العمل سهل ممتنع، بعيد عن الكليشيهات الوطنية، ويُعتبر بمثابة نافذة نرى من خلالها الحياة المقدسية تحت الاحتلال من منظور مغاير تماماً للمسلسلات والشاشات العربية التي تتعامل مع القدس بمنطق عاطفي بحت».

تمكّن مؤسس «مسرح الرواة» من خلال مسلسله من أن يكسر القيود التي تحوّل دون إنتاج دراما عربية وفلسطينية تُصوّر في القدس المحتلة، حيث يُثبت مسلسل «باب العامود» أنّ من الممكن التغلّب على الاحتلال والتصوير ضمن ظروف إنتاجية صعبة وبميزانية متواضعة إلى أبعد الحدود. ويؤكّد أنّ «لا طائل من نقل المسلسل لحوادث الاعتقال والهدم والتدمير في القدس على نحو صريح وسطحي كما يفعل العرب، لكون الاحتلال يجيد ذلك واقعاً أكثر منه تمثيلاً».

يتابع مخرج مسرحية «الأحداث الأليمة في حياة أبو حليمة» (2008): «لقد استطعنا أن نتلمّس المسرح ونقدّم أعمالنا المسرحية بتوليفة تلفزيونية تحمل اسم «باب العامود»، الذي سيحمل الجزء الرابع منه عنوان «الثبات»؛ الثبات في أقصى تجلّياته لدى المقدسيين الذين تؤدّي أدوارهم شخصياتٌ شعبية وقريبة من القلب لا تستطيع العيش إلا داخل القدس العتيقة، رغم كلّ قيود الاحتلال والصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التي تواجههم، وضيق ذات اليد، وجحود الأنظمة العربية ونكرانها للحقّ الفلسطيني. ما زال هناك أملٌ يدفعنا إلى مزيد من العمل، وإلى مزيد من الفن، وإلى مزيد من الحياة».

ويوضّح أن الموسم الجديد يعرض محوراً جديداً يتمثّل في «عودة أحد المقدسيين من بلد عربي مجاور لمبيع بيته، والإقامة في الشتات»، لافتاً إلى أنه «جرى التواصل مع عدّة منصّات عربية لدعم إنتاج المسلسل، لكننا لم نتلقَّ أي جواب مقنع لعدم قبوله».

يشارك في الموسم الجديد كلّ من: مايا أبو الحيات (حسنيّة)، وإبراهيم خطاري (زهدي بطاطو)، وعدنان أبو سنينة (خليل كمونة)، وعامر خليل اللحام أبو كايد)، ومحمود أبو الشيخ (أبو جابر الفران)، وآخرين؛ والعمل من تأليف محمد الأحمد الذي عمل مع الدباغ من قرب في كتابة أجزاء المسلسل.

المدينة القديمة كاستديو

يقول «باب العامود» إن القدس ما زالت حيّةً تُرزق، من خلال أهلها وناسها. و«المسلسل فرصة نادرة لتوثيق وقائع مريرة يعيشها المكان منذ عقود، حيث نشاهد احداثًا حقيقيّة يرويّها ممثلون يحوّلون مدينتهم الى استديو خاص يشاركون من خلاله أهلها الذين يفتحون بيوتهم ومحلّاتهم التجارية واسطح منازلهم، وهم يشاركوننا ايضا في التمثيل. وهذا لن تراه إلا في القدس»، يلفت اسماعيل الدباغ في حديثه الى «العربي الجديد».

قصائد

المشغول برسم خرائطَ لا تحصى بثماره

أيها البستان السعيد

رايْنر ماريا ريلكه

بستان

لعلّي لم أجرؤ على كتابتك،
ابْتهَا اللغةُ المستعارة،
سوى لاستعمال هذا الاسم القُرويّ
الذي طالما وقَفْه المتفرّدُ عذْبني: بستان.

شاعرٌ فقيرٌ مُجبَرٌ على انتقاء
كلّ ما يقولُه هذا الاسم،
من المُمائل الغامض الذي يترنّح،
إلى ما هو أسوأ: السياج الحارس.

بستان: يا مهارة القيثارة
في قدرتها على قولكَ ببساطة،
يا أسماً متفرّداً يجْذبُ إليه النحل،
يا اسماً يتنفّس وينتظر...

يا اسماً مُضيئاً يخْبَئ الربيعَ القديم،
الربيعَ المليءَ والشفّاف،
يا اسماً، في حروفه المتناسقة،
يُضاعِفُ كلّ شيءٍ ويُكثّره.

نحو أيّ شمس تصعد
كلّ هذه الرغبات الثقيلة؟
وأين هي السماء،
من هذا الاتّقاد الذي تقوله؟

هل علينا أن نبالغ في الإلحاح،
ليُحبّ أحدنا الآخرَ؟
لنكنْ خفيفيْن،
على التربة التي قلَبتْها
شتّى النزعات المتناقضة.

انظروا بعناية إلى البستان:
قدَرُه أن يكون ثقيلاً.
لكنّه، من عنائه هذا،
يصنع بهجةَ الصيف.

ليس للأرض أن تكون أكثر حقيقةً
إلّا في غصونك، أيّها البستان الذهبي،
وليس لها أن تطيرَ أكثر
ممّا تطير بين الخيوط التي ترسمُها
أغصانك على العشب.

هناك يلتقي ما تبقّى لنا،
ما يُثقل الأغصان وما يغذّينا،
بالعبور الجليّ
للرقّة اللامتناهية.

لكنّ النافورة الهادئة، في وسطك،
شبه النائمة في دائرتها القديمة،
بالكاد تفصح عن هذا التباين
الذي يمتزج فيها.

ماذا ستصنع بنعَمها
كل هذه الآلهة المتقاعدة،
المأمورة من ماض ريفيّ
بالبقاء متعقّلةً وطائشة؟

إنها تُنضِجُ الفاكهةَ
(يا لهذا العمل الإلهي)
كما لو كانت متّشحةً بطنين
حشراتٍ تجمّع الرحيق.

لا الهة تمّحي،
مهما كانت مهجورةً،
إذ لا تخيفنا أحياناً
إلا الآلهةُ المتقاعدة.

■■■

هل لديّ ذكرياتٌ، هل لديّ آمالٌ،
إذ أرنو إليك يا بستاني؟
ها أنت ترعى حولي، يا قطيعَ الرخاء،
وتفكّر في ذهن راعيك.

دعني أتأمّل، من بين أغصانك،
هذا الليلَ الذي يوشك؛
لقد عملتَ بما يكفي،
بينما كنتُ في عطلة الأحد؛
لكنّ، هل جعلتْني عطلتي أتقدّم؟

من أن تكون راعياً، هل ثمة شيء
أكثر عدلاً؟
وهل يمكن للقليل من هدوئي
أن ينفذ برفق إلى تفاحاتك؟
لأنني، كما تَعْلَمُ، راحلٌ...

ألم يكن هذا البستان، بأكمله،
رداءَك المضيء، على كتفيك؟
ألم تحسّ كم يواسيك
على التربة التي قلَبتْها
شتّى النزعات المتناقضة.

■■■

أيها البستانُ السعيد، المشغول برسمِ
خرائط لا تحصى بكل ثماره،
والذي يجيد مزجَ غريزته القديمة
بطفولة اللحظة،

ما أعظم صنيعك، ما أعظم قانونك
الذي يتبدّى في الغصون الملتوية،
والذي ما أن يُسَرّ بصلابتها،
حتى ينشأ، نهاية الأمر، في هدوء
الريح.

■■■

أليست مخاطرك ومخاطري أُخوةً،
أيها البستان، يا أخي؟
ريحٌ واحدة تجيء إلينا من بعيد،
تحت قدميك؟

كم مرّةً، في مكان نزهتك،
تملّك الأرض بارتفاعه،
وراح، مع الوقت الهارب،
يعبر كينونتك الحائرة.

رافقْك كتابُ أحياناً،
لكن نظرتك المسكونة بالتجاذبات
كانت تتابع، في مرآة الظلال،
اللعبةَ المتغيّرة للتشابهات البطيئة.

■■■

أيها البستانُ السعيد، المشغول برسمِ
خرائط لا تحصى بكل ثماره،
والذي يجيد مزجَ غريزته القديمة
بطفولة اللحظة،

ما أعظم صنيعك، ما أعظم قانونك
الذي يتبدّى في الغصون الملتوية،
والذي ما أن يُسَرّ بصلابتها،
حتى ينشأ، نهاية الأمر، في هدوء
الريح.

■■■

أليست مخاطرك ومخاطري أُخوةً،
أيها البستان، يا أخي؟
ريحٌ واحدة تجيء إلينا من بعيد،
تُرغمنا على التقشف والرقّة.

■■■

بورتريه داخليّ

1
ليست الذكرياتُ
ما تبقيه داخلي،
ولست لي أيضاً
بقوّة رغبة جميلة.

ما يجعلك حاضرةً
هو الانعطاف المتّقد
الذي ترسمه رقّةٌ بطيئة
في دمي.

لا حاجةَ لي
إلى رؤيتك أمامي؛
كان كافياً أن أولد
كي أخسرك أقلّ قليلاً.

2
الجميلُ رحيلٌ،
حصّةٌ منّا، تتنحّى،
تعتاد السماوات،
بدلاً من مرافقتنا.

أليس اللقاء الفادح بالفن
أكثر الوداعات رقّةً؟
أليست الموسيقى هذه النظرة الأخيرة
التي تلقيها عيوننا علينا؟

(ترجمة: ميشرافي عبد الودود، والقصائد من ديوان «بساتين» المكتوب بالفرنسية)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

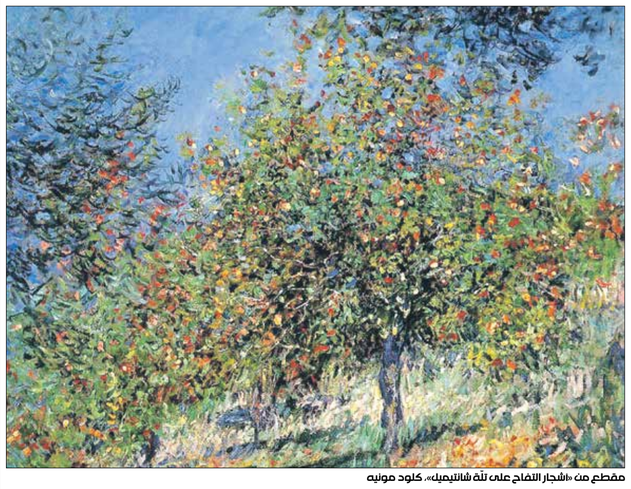
مقطع من «أشجار التفاح على تلة شانليمية»، كلود مونيه

إطلالة

في قوانين التأثّر والتأثير

تقرير حول الشعر

في تعليق على قصائد ترجمها له ونشرها عام 1986، يوجّه الناقد يوسف اليوسف نقداً لاذعاً لـ ت. س. إليوت، ويسائل تأثيره في شعراء عرب معاصرين

ممدوح عزام

في تقديمه لمجموعة قصائد ت. س. إليوت التي ترجمها («دار منارات»، 1986)، يقول يوسف اليوسف إنّ توظيف الأسطورة لدى الشاعر الأميركي فيه افتعالٌ يدلّ على نضوب الطاقة الشعرية. ويعلّق: «كان شعر إليوت (أو معظمه) أدباً مهوشاً يتآلف من قُتاتٍ مفكّك يعسر توليفه دون تمحّل... وحين يصير الشعر إلى هذه الحال من الافتعال، فإننا نكون قد بلغنا طور التبعّر». لا يكتفي الناقد المعروف بهذه المفردات لوصف شعر إليوت، بل يضيف إليها: الإخفاق، والشيخوخة، والتحنّز، والتجمّد، وتلبّف الخلايا. ومع ذلك فإنّ إليوت يعدّ أكثر شاعر أجنبي التفت إليه الشعر العربيّ وتأثّر به معظم الشعراء العرب المعروفين. بل إن قصائده قد تُرجمت أكثر من مرّة، غير ترجمة يوسف اليوسف هذه، كما نُقل كثيرٌ من أعماله النقدية ومسرحياته إلى العربية.

لكنّ يوسف اليوسف يقول إن الشعر العربي قلّد إليوت وأخذ «يجنح صوب التشنّج وانتفاس قسماته الإنسانية المنعشة»، ذلك أنّ «النسق الطليعي في الثقافة العربية وقف مبهوراً أمام شعره ولاقاه بشيء من الدونية، ومن دون إبداء أيّ تحفّظ أو احتجاج». ويعزو ذلك إلى «شدّة الفقر في طاقة الرفض الخلّاقة، حيث تسود البغاوة وعقدة الخواجا... وبسبب هذا التأثر الفارغ صار الشعر العربي تهويماً وعماهةً في اللامعنى».

يضعنا هذا النقد الذي يحوّل الشعر، شعر إليوت، والشعر العربي الحديث المتأثّر به إلى يباب، أمام سؤالين. أوّلهما: لماذا تأثّر شعراء الحداثة العرب بإليوت دون غيره من شعراء العالم؟ علماً أن العالم يزخر بأسماء شعراء لهم أثرهم الكبير في ثقافات بلادهم، وفي الثقافة العالمية، بينما يتّصف شعر إليوت بأنه الأكثر غموضاً وصعوبة في معرفة مقاصده من بين كل نظرائه، ولولا الشروح الكثيرة التي يضعها نقادٌ في الغرب على قصائده لاستحال فهمه. ومع ذلك، فهو شاعر مقروء بكثرة.

يولّد هذا السؤال حاجةً للتأمّل في قوانين التأثّر والتأثير بين الثقافات. لدى سعيد علوش رأيٌ يتطلّب كثيراً من الدراسة، في كتابه «إشكالية التيارات والتأثيرات الفكرية في الوطن العربي»، إذ يشير إلى أن دراسة التأثيرات تتطلّب وجود حدٍّ وسيط، بين الثقافة المرسلة والثقافة المرسَل إليها، يدفع لوجود التأثير أو عدم وجوده. ما هو هذا الحدّ الوسيط؟ وكيف يحدث التلقّي الثقافيّ؟

أمّا السؤال الثاني فهو: لماذا بات ذلك النسق الطليعي من الشعراء في رأس قائمة الاهتمام والتداول حتّى اليوم بين القرّاء العرب؟ يكفي أن نذكر أسماء بدر شاكر السيّاب، وتوفيق الصايغ، وصلاح عبد الصبور، ومحمود درويش أيضاً، من بين الذين تأثّروا بشعر إليوت - بغض النظر عن كيفيّة هذا التأثّر لدى كل منهم - لنفهم دور هذا الشاعر في مسارات الشعر العربيّ المعاصر.

لكنّ كتاب قصائد إليوت المترجمة يضع القارئ في حيرة أخرى، بين هجاء النقد للشعر وبين الشعر نفسه، الذي يترجَم بهذا المستوى البهي من اللغة.

(روائي من سورية)

> لمَ تأثّر شعراء الحداثة العرب بإليوت أكثر من غيره رغم غموضه؟

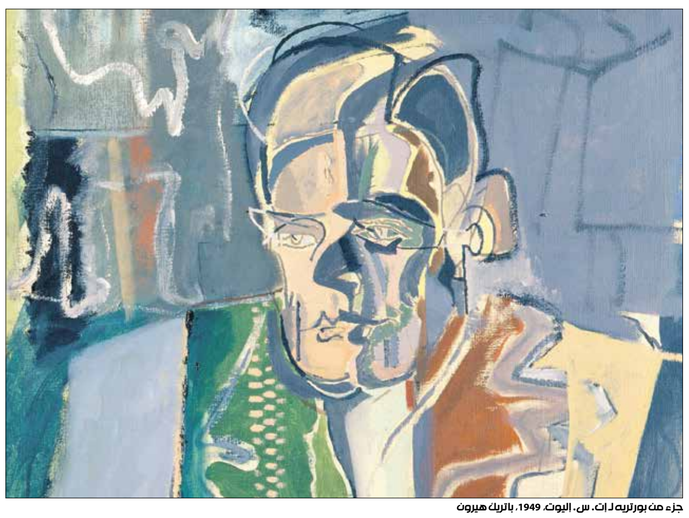
جزء من بورتريه لـ ت. س. إليوت، 1949، بالتريك هيرون

فعاليات

تعرض «المكتبة السينمائية التونسية» في مدينة الثقافة بتونس العاصمة، عند الخامسة من مساء اليوم، فيلم **الريح التي تهزّ الشعير** (2006)، للمخرج البريطاني **كين لوتش**. يتناول الفيلم حركة المقاومة الايرلندية ضد الهيمنة البريطانية منذ 1920 عبر قصة شقيقين ينخرط احدهما في جيش التحرير الايرلندي.

اسكتشات، عنوان معرض استعادي للفنان المصري **جورج بهجوري** (1932)، يفتتح بعد غدٍ الاحد، في «غاليري مشربية» بالقاهرة ويتواصل حتى السابع عشر من الشهر المقبل. يضيء المعرض جميع مراحل تجربة بهجوري بما فيها بور تريهاته التي تتناول العديد من الشخصيات العامة، واعمال الكاريكاتير، واللوحات التي تتضمّن مشاهد من الحياة اليومية في مصر، إضافة إلى اسكتشات الحبر.

حلم ليلة حظر، عنوان مسرحية جديدة للمخرج الاردني **حكيم حرب**، ستعرض الإثنين المقبل على خشبة «المركز الثقافي الملكي». العمل مقتبس من مسرحية الشاعر والمسرحي الإنكليزي وليم شكسبير: «حلم ليل صيف»، حيث يستعير بعض عناصرها الدرامية ليتناول الوقائع التي يعيشها العالم مع وباء كورونا.

حتى الثاني والعشرين من الشهر الجاري، يتواصل في «زيكو هاوس» ببيروت معرض **اميغدالا**، للفنان اللبناني **مارون اسمر**، الذي افتتح في الثامن عشر من الشهر الماضي. استمد اسمر العنوان من مفردة طبية تعني «اللوزة العصبية»، وهي جزء من الدماغ مسؤول عن الاستجابات السلوكية المرتبطة بالخوف والقلق.